المذاهب الاشتراكية

توطئة لبحث تأثير الماركسية في الادب

لحليم دمرى

اذا اعتبرنا المساواة السياسية « مثلاً أعلى » للديموقراطية الحديثة فقد ظلّ عدم المساواة الاقتصادية مسألة المسائل في الحياة الاجتماعية بل في الشؤون السياسية مما لم يعرض له العقل الاجتماعي بحل تطبيقي حتى اليوم . ويعزى هذا الاضطراب في التوازن الى التقدم الصناعي في القرن التاسع عشر . ذلك التقدم الذي بدأ صفحة جديدة في حياة المجتمع الانساني بل قد أوجد طبقتين في ذلك المجتمع طبقة « الرأسماليين » الذين ينعمون بأرباح طائلة لا حدّ لها ويعيشون في رفاهية تامة وطبقة « العمال » الذين يتأثرون بحالة العرض والطلب أي حالة السوق التجارية وما قد يطرأ على الصناعة من تقدير معنوي . ولقد أصبح « العمال » منذ هذا التقسيم عرضة للأزمات الاقتصادية في كافة أنحاء العالم

ويرجع نشوء « الرأسمالية » الى سببين رئيسيين

أولاً — تأثير المبادىء التي أذاعها الاقتصاديون في القرن الثامن عشر والتي بدأ تطبيقها العملي في اوربا منذ النصف الاول للقرن التاسع عشر

ثانياً — التقدم الصناعي القائم على الاختراعات والاكتشافات العلمية في القرن التاسع عشر فالاقتصاديون قد دعوا الى حرية التجارة والصناعة والى الغاء النظام الخاص بالنقابات . في حين أن هذه الحرية أفادت اصحاب الاعمال أي « الرأسماليين » دون غيرهم لان العامل البسيط كان عاجزاً عن ضمان مركزه الاجتماعي او الدفاع عن مستقبله وحقوقه كفرد في الهيئة الاجتماعية . أما التقدم الصناعي فقد أفضى الى تجمع وسائل الانتاج في أيد قليلة من الممولين الذين يقيمون المعامل والآلات ويشترون الصناعات ويصدرون للشركات التجارية . ونتيجة هذا ان انتهز هؤلاء الفرصة لارهاق العمال وتخفيض اجورهم مما كان يؤدي حتماً الى أن يعاني الفريق الاكبر من الشعب سوء العيش

وإذا كان أصحاب السلطة قد قضوا أبديهم الشؤون الصناعية تنفيذاً لخطة السائد في ذلك العهد فقد نشأت المبادىء الاشتراكية التي عرضت على الاقتصاديين في الحرية ونسبت اليها أخطاء الانتاج وسوء التوزيع وفوضى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ثم تطرقت الى نقد نظام « الرأسمالية » الذي يعطي الغنم كلهُ لطائفة قليلة من الناس ويترك الصناع وأصحاب الايدي العاملة في حالة شديدة من البؤس والفقر . ثم طلع على مسرح الاجتماع طائفة من أصحاب الآراء الاشتراكية لم تكن لهم خطة معينة لقلب أوضاع تلك المبادىء الاقتصادية ولم يرسموا صورة كاملة لما يجب ان يكون عليه النظام الجديد للاجتماع

***

« المذاهب الاشتراكية » الاساس في الاشتراكية ان يُضحي الفرد لمصلحة الجماعة ، والاشتراكية في هذا تضاد « الفردية » او الحرية الاقتصادية بمعنى أدق . وهذه الفردية تعني المحافظة على الانسان وشرفه وشخصيته وهي تقوم على الحرية التي تعتبر اساس النظام الاجتماعي وأساس المجهودات الفردية . وهي لا تطالب الحكومات بالسير لاسعاد الافراد ولكنها تعمل لكي تحقق الحكومات تيسير السبل للافراد للقيام بمجهوداتهم في دائرة اعمالهم الحرة على احسن حال . وتشير « الفردية » الهيئة الاجتماعية قائمة على نجاح الافراد في جهادهم الحيوي . وان تلك الهيئة لا تساوي اكثر مما يساويه افرادها . فتقدمها نتيجة لتقدمهم وسقوطها نتيجة لسقوطهم

أما « الاشتراكية » او « الاجتماعية » كما كان ينبغي ان نسميها ، فهي لا تخضع لقوة او تحتمي بسلطان وانما تستمد قوتها وكيانها من سلطة التطور الاجتماعي والتطور الاجتماعي له عناصره الطبيعية والاقتصادية والنفسية وليس هنا مجال التعليق على هذه العناصر وبيان آثار كل عنصر منها . والمعروف ان الهيئات الاجتماعية تتطور وتتعدل وتختلف بمقتضى هذا التطور باختلاف الجهاد العقلي وصلة هذا الجهاد بتقدم العلوم الاجتماعية وتطبيقاتها العملية . ويتوقف على هذا ان القوانين الوضعية والنظم المختلفة الخاصة بالمجتمع لا يلبث ان يعتريها ما يقتضي كلما دار الزمن دورته وبلغ العقل الاجتماعي شأواً بعيداً من التقدم ان يبقى من تلك القوانين وهاته النظم الا « الانسب » . ولما كان النظام الاقتصادي القائم في العالم يسخّر طائفة كبيرة من الناس لمصلحة طائفة قليلة من « الرأسماليين » فهو نظام فاسد لا يقرره الوضع الطبيعي للحياة ويتحتم تغييره لانهُ لا يقوم على الحق والمساواة

بدأت الاشتراكية منذ أقدم العصور « نظرية من نظريات التفكير السياسي التي ظهر تحت

الثورة والحرية وهي لا تزال كذلك على الرغم من المحاولة الروسية الجريئة منذ عام ١٩١٧ لإقامة النظام الاشتراكي في الحكم . وهذه النظرية أعرق في القدم من نظرية الحرية الاقتصادية . اذ لم تتخذ هذه هيئة مذهب الا منذ القرن الثامن عشر . وطبيعي ان توالي العصور لم يضعف المذهب الاشتراكي بل أحياه وصبغهُ بصبغات اخرى سياسية وثقافية

***

تزعّم الاشتراكية في فاتحة القرن التاسع عشر «سنت سيمون» و«روبرت اوين» الانجليزي. فسيمون كان له اتباع من جماعة الاشتراكيين الخياليين الذين لا تقوم تعاليمهم على مبادىء عملية وانما تصطبغ بصبغة تصوفية فلسفية . وسيمون يذهب الى انه لكي يجب ان تسعد الانسانية ينبغي ان تستثمر الموارد الطبيعية ويكون توزيعها بطريقة عادلة وذلك بأن يشرف جماعة المفكرين وانطباء والعمال على الادارة الحكومية . اما « روبرت اوين » فقد اقترح الغاء النظام الرأسمالي ووضع نظام خاص للصناعة والزراعة والتجارة يسير على اسس التعاون . ولن نقسى ونحن في هذا الصدد أن نقرر ان بعض هذه الآراء كان آمالاً خيالية أكثر منهُ حقائق ثابتة لبعدها عن الآثار العملية المترتبة على التطور الاقتصادي لهذا الزمن . اما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد اتخذت الاشتراكية مجالاً أوسع منها قبلاً وذلك باشتهار آراء «كارل ماركس» العلمية مما سنتحدث عنهُ

أما مذاهب الاشتراكية فهي الشيوعية . والفوضوية . والجماعية . والماركسية . والماركسية الجديدة

فالشيوعية يمثلها في الفلسفة اليونانية القديمة «أفلاطون» الذي حاول في كتابه «الجمهورية» ان يكون شيوعيًّا . وإنما حدا وجود طبقة السيد لخدمة السادة والقيام بالأعمال الصناعية وكان يعتبر العاملة طبقة من الناس بعيدة عن الاندماج في نظام جمهوريته الشيوعية لانحطاطها عن مستوى الطبقة الارستقراطية . وتلك الجمهورية كانت مؤسسة على المبادىء الفلسفية الخلقية اي على الفضائل وقد جعلها المحور الذي تدور عليه حياة الانسان وعلى العدل الذي هو أساس الملك الوطد ولكنهُ أنكر حرية الفرد ودعا الى شيوعية النساء . ولقد ظهر في القرن السادس والسابع عشر دعاة شيوعية سعوا الى تحقيقها كثيرون منها أمثال « توماس مور » صاحب « جزيرة الاوهام » التي تخيل فيها طبقة من الناس يعيشون في جزيرة يقوم بالحكم فيها رجال القضاء بسلطتهم الادبية ولا يملك الفرد فيها حرية التصرف لانه في تصرفاته وأعماله يتبع الجماعة التي تقوم بالحكم . ويجب ان تقوم الشيوعية في الاصل على مبدأين

أولاً — ان يكون عدد سكان الجهة المرغوب نشر الشيوعية فيها قليلاً لا يتجاوز ٢٠٠٠ شخص لكل ما قل عدد السكان صار من السهل نشر الدعوة الشيوعية

ثانياً — أن تكون الهيئة الاجتماعية السائدة طفقاً للنظام الشيوعي فيها كفاية المحافظة على تقسيم الثروة بالزام كل فرد ألاّ يأخذ اكثر من نصيبه

أما الفوضوية فنوع متطرف من الشيوعية وهي تجمع بين الآراء الحرّة والافكار الاشتراكية. فالفوضويون يشكون بحرية الفرد وشدة كرههم للحكومة وعدم قبول نظام الملكية الفردية وطرق استخدام العمال. ويعتبر برودون Proudhon أول مؤسس للفوضوية وهو الذي قال ان الملكية هي السرقة بعينها. والفوضوية التي نحن بصددها هي الفوضوية السياسية الاجتماعية لا الفوضوية الفلسفية فهي التي تقوم في نفوس الافراد والجماعات ومنشؤها « الانانية » وحب النفس واول من دعا اليها M. Stirner وتنتهي رغبة اصحاب الفوضوية الفلسفية الى ان يتمتع الفرد بأقصى حرية فكرية تمكنه فهم يعتبرون الفرد قوة مستقلة ويفهمون انهُ طالما كان قوياً فالحصول على مطالبه شيء يسير. فهو مذهب « ويعدي الطوفان » وكل من يقف في وجه المصالح الفردية يجب محوه وإزالتهُ. وأما الفوضوية السياسية الاجتماعية فتدعو الى الحرية الفردية المطلقة لان كل طاعة يفهم منها التنازل عن حق من الحقوق الفردية ومذهبها الاعلى هو « يجب ألاّ تقيد الهيئة الاجتماعية الانسان بغير القيود التي أوجدتها الضمة ». ولقد تزعم الفوضوية بعد « برودون » « كروبتكين » ثم « باكونين »

واما الجماعية « Collectivisme » فترمي الى ان تكون وسائل الانتاج من أرض ومناجم ومعامل ومصارف مالية ومواد اولية وغيرها ملكاً للجماعة. أما فيما يتعلق بأمور الاستهلاك فتكون حقاً لمن أنتجها بجده واجتهاده. ويجب ان نفهم ان الشيوعية لا تعترف بالملكية. أما الجماعية فلا تلغيها واما تميز بين الانتاج ووسائله فيظل الانتاج ملكاً لمن أنتجهُ أما وسائل الانتاج فتكون ملكاً للجماعة وهذه الجماعة تحدد مسؤولية كل فرد من افرادها وهي تمده بكل ما يحتاجه لقيامه بعملية الانتاج. واما لا يكون المنتج حرّاً في بيع نتاجه اذ يجب عليه ان يسلمهُ للجماعة لتعطيه نظيره ما يعادله من الثمن بحسب مجهوده وعمله. تلك هي الجماعية الصناعية اما الجماعية الزراعية فهي التي تشترط ان تكون الارض ملكاً للجميع

***

والآن نقول ان الرجل الذي استطاع ان يركز طائفة كبيرة من الآراء والافكار الاشتراكية في هيئة مذهب علمي اقتصادي هو « كارل ماركس » واضع « الاشتراكية العلمية » او « الماركسية » وهذه الاشتراكية العلمية تميز عن الاشتراكية الخيالية التي ظهرت منذ فجر التاريخ والتي تحدث عنها الفلاسفة وكبار « الطوبيين » امثال افلاطون وتوماس مور وبلز وغيرهم

﴿ كارل ماركس ﴾ ولد كارل ماركس سنة ١٨١٨ في « ترفيه » ببروسيا . وكان أبوه في الاصل يهوديًّا ثم ارتدَّ الى المسيحية وكان موظفاً « قضائيًّا » بحكومة بروسيا . ولقد درس كارل ماركس في جامعتي بون Bonn وبرلين . وكان قد اختصَّ في دراسة التاريخ والفلسفة والاقتصاد السياسي . وترك الحياة الجامعية عام ١٨٤٢ عندما بدأ يحرر جريدة راديكالية هي « نهر الرين » وكان لما احتوتهُ من جرأة فكرية وآراء حديثة ان اغلقتها السلطة البروسية ومن ثمَّ هاجر كارل ماركس الى باريس وهنالك نشأت صداقته الخالدة مع المفكر الاشتراكي الالماني « فريدريك إنجلز »

ثم طرد ماركس من باريس عام ١٨٤٥ بعد ان درس آراء الاشتراكيين الفرنسيين وذهب بعد ذلك الى « بروكسل » وتبعه اليها « فريدرك انجلز » فأصدرا في يناير عام ١٨٤٨ « البيان الشيوعي » الذي دعوا فيه العالم الى الاتحاد والانضمام للدولية العاملة وقالا فيه . « ايها العمال من كافة البلاد اتحدوا » وبهذا النداء اتجهت الانظار الى المذهب الجديد عند ما نشر كارل ماركس مؤلفه « رأس المال » في عام ١٨٦٧

ولن يظفر الباحث بحلقة مفقودة بين الاشتراكية السابقة على ماركس واشتراكيته العلمية اذ يوجد في أصول الثانية كثير من أسس الاولى . فالماركسية مذهب اقتصادي علمي قام على دعاوة اشتراكية منظمة في وسط حركات ثورية ألبستهُ رداء جديداً . ولقد كانت نتيجة هذا نجاح الفكرة الاشتراكية بوجه عام وذيوعها في مختلف الاوساط . وطبيعي ان هذا النجاح لا يرجع الى المذهب الاشتراكي في ذاته فهذا قديم قدم الحياة الانسانية نفسها وانما مرجع هذا الى تطوُّر الفكر السياسي تبعاً لحق الانتخاب العام الذي جعل دعاة الاشتراكية يطمحون الى تولي السلطة بالوسائل المشروعة والتوجيه الاقتصادي الجديد للهيئة الاجتماعية . وتتلخص نظريات كارل ماركس في الآتي :

﴿ نظريته في الحركة لاجتماعية ﴾ تتلخص في ان العالم المادية هي التي تحرك الافراد ومن ثمَّ تؤثر في الاخلاق والنظم « فالمادية التاريخية » Historical Materialism هي عكس « الروحية التاريخية » التي من مقتضاها ان الافكار هي التي تقود الانسان .

وتثبت المادية التاريخية وجود نزاع مستمر بين الطبقات المختلفة للجماعة الواحدة وان الجماعة الحاضرة تسير نحو النظام الجمعي طبقاً لتطور الاجتماعي . وأما في القرون الوسطى مثلاً فقد كان الاشراف يستغلون الطبقة المتوسطة التي كافحت النظام الاقطاعي وهذه لما فازت بحقوقها أصبحت عبارة عن طبقة « رأسماليين » يستغلون طبقة العمال ويستولون على جزء من العمل بدون مقابل لعدم اعطائهم الاجور المناسبة . ويحدِّد ماركس الاجر العادل على المجهود الذي يصرفهُ العامل في العمل

وأما الرأسمالي فيستخدم الجزء من العمل الذي يستولي عليه من العامل في زيادة الانتاج . واذن فهنالك جزء من الانتاج لا يستهلك وهذا يؤدي الى اضطراب في التوازن بين الانتاج والاستهلاك بل مما يؤدي حتماً الى أزمات قلة الاستهلاك لان العامل لا يستهلك أو لا يمكنه ان يستهلك ما يجب ان يستهلكه لقلة أجره

نرى من هذا أن الطبقة الغنية صاحبة الاموال تعيش على عاتق الطبقة الفقيرة التي هي طبقة العمال . ومن هنا نشأ كفاح الطبقات الفقيرة مع اصحاب الاموال اي « الرأسماليين » . وينحصر بحث ماركس في هذا على قاعدة « عدم المساواة في طرق التبادل » . واما بحث من تقدموه فينحصر في سوء نظام الملكية . وماركس يبحث الموضوع من الوجهة الاقتصادية البحتة . أما « سيسموندي » و « برودون » و « سيمون » فكانوا يبحثونه من الوجهة الخلقية الاجتماعية . ويقرر ماركس ان العمل ليس وحده اساساً للقيمة او سبباً لها بل هو جوهر القيمة او مادتها . وهو الذي يحدد قيمة الاشياء اي ان تلك القيمة تحدد بحسب ما احتاجت اليه من الوقت في صنعها . واذن فالنقد لا تصلح ان تحدد قيمة الاشياء وهو لهذا يضع النظام الاجتماعي الاقتصادي كالآتي :

(١) ان تكون وسائل الانتاج تحت تصرف الجماعة وان تكون اموال الاستهلاك تحت النظام الفردي لان الاشتراكية الجمعية تخلق الشيوعية لا تلغي الملكية الفردية الا في وسائل الانتاج

(٢) تنظيم الانتاج وموازنته بالاستهلاك بواسطة الجماعة

(٣) احلال قيمة العمل مكان قيمة المبادلة المبنية على المنفعة وتكاليف الانتاج . ولنظرية التركيز Concentration تتلخص في ان المشروعات الاقتصادية الفردية والملكية الفردية تندمج الصغيرة منها في الكبيرة الى ان تنحصر هذه الاملاك في أيدٍ معدودات وعندئذٍ يسهل على العمال عزل . وسواء الصناعات الكبيرة ليحلوا محلهم وتكون الملكية كلها من صناعات وعقارات ملكاً للعمال ولا يتم هذا التركيز الا اذا كانت المنافسة حرة

ولقد كان ماركس يريد تحقيق نظرياته عن طريق التطور الاجتماعي الاقتصادي لتصبح وسائل الانتاج ملكاً للجماعة وحتى يصير ما ينتجه العمال ملكاً لهم وبهذا تزول الظلم عن الطبقة المغلوبة على امرها طبقة العمال المهضومة الحقوق

***

« نظريته في تفسير التاريخ » ويعتبر اكبر مفخر لحياة كارل ماركس الفكرية هو ابتداعه لنظرية « التفسير الاقتصادي للتاريخ » ورأيه فيها ان قوى الانتاج هي التي تأتي بالنظام الذي يلائم المجتمع ولا ينبغي ان نطلب اصلاح المجتمع بناء على النظريات « المثالية » التي يقرر بما

أصحاب المُثُل العليا، وهذه النظرية تحدد الفوارق الاخلاقية والمادية للهيئات الزراعية والصناعية وان طريقة الانتاج والاستهلاك تحدد للامة توزيع الثروة وهي لذلك تقرر النظام الاقتصادي والسياسي والادبي وتأخذ هذه النظرية الحياة الاقتصادية للامة برهاناً على صحتها . ثم عند ما يوضحها يقول ان الامراء والاشراف كانوا يستولون على العقارات والارض لمصالحهم . فلما انتهى العهد الاقطاعي حلّت الطبقة المتوسطة محلهم Bourgeois Capitalista وهذه هي طبقة الرأسماليين الذين يستغلون الآن الاموال والعمال في الارباح الهائلة التي يحصلون عليها ومصير هذه الطبقة ان تزول إذا استولى العمال على الارض والعقارات . فالهيئة الزراعية أتاحت للامراء الاستيلاء على الارض ثم جاءت الآلات والصناعة فأتاحت للطبقة المتوسطة الاستيلاء على الاموال والاستبداد بالعمال وقد تأتي غداً الاشتراكية فتقرر في العالم سيادة العمال وهكذا يبيد من الوجود طبقة الرأسماليين

ولقد نستطيع أن نقرر ان الجماعة لم تتحول حتى الآن الى النظام الجمعي الذي فرضهُ ماركس على المجتمع فرضاً وكذلك لم تهزم طبقة العمال « الرأسماليين » وقد كان ان ظهر في عصره جماعة شنوا عليهِ غارة النقد فحذوا اعتبار المنفعة وقفة الانتاج أساساً للقيمة وبدأ الكثيرون ينقضُّون على مذهب ماركس الاقتصادي . فلقد أهمل « كوتسكي » Kautsky « كثيراً من نظريات ماركس ولم يتفق معهُ على ان المادة وحدها ذات تأثير عظيم في تطور الهيئة الاجتماعية « النظرية المادية التاريخية » بل يؤمن ان الاخلاق لها تأثير كبير في التطور الاجتماعي . ولقد خالفهُ ايضاً في ان طبقة العمال آخذة في التدهور والفقر بدعوة ازدياد عددها مع انتشار الصناعات اليدوية وانتشار الصناعات التي تقوم على الآلات بل طبقاً للاحصاءات المتباينة في مختلف الاقطار مما تدل على ان حالة العمال آخذة في التحسين . ولقد كان كوتسكي هذا من انصار السلم والاستقرار . ومن معارض ماركس ايضاً برنشتين Bernstein . وبخاصة في نظريته عن التوازن الاقتصادي القائم على الانتاج والاستهلاك . وقال بوجوب تحسين حالة العمال الحُلُقية وانهُ من الصعب أن يصل الباحث الى تطبيق نظرية التركيز الماركسية على الملكية وحصرها في يد واحدة أو في أيد معدودات

ويقول برنشتين ايضاً ان الاشتراكية حركة والحركة هي كل شيء في الحياة الاجتماعية واما الغاية فليست شيئاً يذكر

وعلى هذه المبادىء التي نالت من بعض نظريات ماركس الى درجة محدودة وفي ظروف خاصة قامت الماركسية الجديدة وهذه الماركسية الجديدة هي النقد الذي وجههُ الناقدون المتقدمون

من أنت ؟

جواب الروح الانسانية : لفيكتور هيجو

من ديوان « الله ونهاية الشيطان »
Dieu et la fin de Satan

أنت يا من تسامت عن عالم الاحداث
طائفاً هنا وهناك ، ولا يتجلى لك سوى منحى واحد من الكائنات
أن روحي المنبثة في تضاعيف الكائنات هي روح الإنسانية
التي ظهورها في كائن معناه ارتفاع مشعل الانسانية فيه
ان كلماتي الحية ، التي تتجاوب في حنايا النفوس
أشبه ما يكون بسريان طنين النحل في قفيره

اني ملتقى الكائنات على الدوام
ومدار عجلة الحياة
روحكم ، هو أنا ! الذي يقيد سكناتكم وحركاتكم
وانا الذي يطوف على نفوركم بالابتسام ويجري بالدمع في مآقيكم
ويلهمكم الايمان ويثير الشك والجحود فيكم
أنا ... أنا نفس الكل
أنا الذي أصبح في كل متحفز للعمل
حسبك ما قلت : أنا الذات المشتركة بين البشر

ان مقاليد الامور في يدي ، فأنا الذي أقود وأدبر وأحرك
وان كان هنالك شيء ترتعد له فرائصي فهو تجاوز حدّ الاعتدال
فهو ان بدا لي في شبح انقباض مسني الخوف ، وفي نور الحكمة تولاني الرعب
اني أقبض على أعنة الغضب والشهوة
لكي لا ينحرفا عن طريق الخير
وليصحب الانسان اذن في قافلة الحياة أسد الغضب وكلب الشهوة ؟

[تنبه : الدكتور اسماعيل أحمد أدهم]